بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[203]. وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[204]. وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ[205]. إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ (أي الملائكة) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ[206].

– تعليق

السورة كلها رد على قريش على إثر ذهابهم إلى أبي طالب، هي امتداد لسورة "ص". والقصص فيها موظف مباشرة في هذا الغرض. حوار الأنبياء مع أقوامهم هو حوار الرسول محمد عليه السلام مع قريش.

ترتبط بداية سورة الأعراف مباشرة بكل من بداية ونهاية السورة التي قبلها (سورة ص). فمن جهة تستعيد في مقدمتها موقف قريش وعجبهم من أن يكون محمد بن عبد الله مبعوثا من الله إليهم، كما فعلت سورة "ص" في بدايتها، ومن جهة أخرى تربط موقف قريش ذلك، بموقف إبليس من آدم، الذي شرحته السورة السابقة في نهايتها. وبالجملة يمكن القول إن سورة الأعراف التي نزلت مباشرة بعد سورة "ص"، حسب ترتيب النزول، قد جاءت لا لتكرر ما سبق أن ورد في هذه الأخيرة، بل لتعيد صياغته بشكل أكثر تنظيما وتفصيلا.

وهكذا تبدأ السورة –كما رأينا أعلاه– بمخاطبة النبي عليه السلام مؤكدة أن القرآن الذي يوحى إليه هو كتاب من عند الله تعالى، فعليه أن لا يشعر بأي ضيق أو حرج في تبليغه لقومه، ينذر المكذبين، ويذكر المؤمنين، داعيا إلى عدم اتخاذ أولياء لهم من دون الله كما كان يفعل أقوام من قبل فكان مصيرهم الهلاك. ثم تعلن السورة عن أن مدار القول فيها هو قصص أحوال هؤلاء الذين اتخذوا لهم أولياء من دون الله فعبدوا الأصنام أو أشياء أخرى غير الله، وما جرى بينهم وبين رسلهم من حوار وجدل، حتى يتبين السامع بنفسه، ومن خلال استعمال ميزان عقله، الصواب من الخطأ، والهدى من الضلال.

وهكذا تنطلق هذه السورة من استعادة القصة التي خُتمت بها السورة السابقة (قصة إبليس/آدم) ولكن مع تفاصيل أوفى: لقد ابتدأ مسلسل وجود البشر، الذين مكن لهم الله في الأرض (والخطاب موجه إلى قريش)، بدأ من خلق الله آدم في السماء وأمره الملائكة بالسجود له تكريما، فسجدوا إلا إبليس. ولما سأله تعالى عما منعه من السجود احتج بتفوق أصله على أصل آدم: "خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ". فكان جواب الرب على هذا "الاستكبار" الذي يماثل استكبار الملأ من قريش، الذين تساءلوا كما رأينا في أوائل السورة السابقة، "أأنزل عليه الذكر من بيننا" وأهمل

كبراءنا وأشرافنا! كان الجواب أن الله أمر إبليس بالهبوط من السماء إلى الأرض، ليريه مكانه الحقيقي بين "الصاغرين"[33]. هنا طلب إبليس من الله أن لا ينفذ فيه وعيده وأن يُمهلهُ إلى يوم القيامة، فاستجاب الله لطلبه. وهنا قال إبليس: بما أن مُقامي في الجنة قد فسد بسبب هذا المخلوق الجديد (آدم) فإني سأتجند لأنتقم منه، سأفسد مُقامه هو وذريته في الأرض. فأجابه تعالى: أخرج من الجنة مذموما، وسأملأ جهنم منك وممن اتبعك منهم. ثم خاطب الله آدم: "اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ" (الأعراف 19).

وهنا يبدأ الجزء من القصة الذي لم يرد في السورة السابقة: إبليس يغري آدم وزوجه بالأكل من شجرة، كان الله قد نهاهما عنها، فانساقا لإغرائه ودفع بهما الطمع إلى الأكل من تلك الشجرة وما أن فعلا حتى بدت لهما عوراتهما (والمقصود ضعفهما الذي يكشف عن أنهما خلقا من مادة (طين) وليس من نور (كباقي الملائكة)، وطفقا ينتزعان من أوراق الشجر ما به يستر كل منهما عورته (كناية عن سعي الإنسان لستر جوانب الضعف فيه). ولما رأى الله فعلتهما اتجه إليهما باللوم والعتاب وأمرهما بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض ليعيشا وفق طبيعتهما "الترابية"[34].

من هذا العرض المركز عن قصة آدم مع إبليس تنطلق السورة، سورة الأعراف، التي نحن ضيوف عليها، إلى تفصيل القول في العبرة التي يجب استخلاصها منها، متجهة بالخطاب إلى ذرية آدم لتنبههم إلى أن الشيطان (الشهوة) الذي أخرج أبويهما من الجنة بعد أن كشف عن عوراتهما (عن جانب الضعف البشري فيهما) مصرٌ على مواصلة مهمته التضليلية بين صفوف البشر، وأن الله جعل الشياطين "أولياء الذين لا يؤمنون" (والمقصود المباشر هم قريش) يضلونهم

33 – لم يرد اسم إبليس في التوراة بل ورد اسم الحية (أو التنين) فهي التي أغرت حواء، وحواء أغرت معها آدم، بالأكل من الشجرة المحرمة. أما في الأناجيل فقد ورد اسم إبليس (والشيطان) على أنه هو الحية ذاتها. على أني لم أعثر في التوراة ولا في الأناجيل على ما يشبه قصة أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتناع إبليس بدعوى أنه من "نار" (نور) وآدم من طين (تراب). ولعل ذكر القرآن لهذا الجانب إشارة إلى ما تدعيه قريش من تفوق على المستضعفين من أتباع النبي (ص)، وقد سمتهم "الأراذل" وطلبت من النبي أن يطردهم كشرط للاعتراف به والانضمام إليه.

34 – والجدير بالذكر هنا أن خطيئة الأكل من الشجرة هي –في القرآن– خطيئة آدم وليس خطيئة حواء، فالمسؤولية تقع على الرجل وليس على المرأة/الحية (كما في التوراة). ولذلك طلب الله التوبة من آدم وليس من حواء. فلما أعلن آدم توبته سقطت الخطيئة.

ويوجهونهم ويملون عليهم أفكارا كاذبة يبررون بها ما يرتكبونه من ضلالات، ويتمسكون به من مبررات وحجج.

وتستمر السورة في بيان أوامر الله ونواهيه وما يترتب عنها من ثواب أو عقاب يوم القيامة، ثم تقدم مشهدا من مشاهد الحوار الذي يجري في الآخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار- وهذا المشهد هو المقصود بقوله تعالى عن قريش "هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ؟"، أي هل ينتظرون حصول ما سيؤول إليه ما في هذا الكتاب من وعد ووعيد؟ وبعبارة أخرى: هل ينتظرون قيام القيامة ليروا بأعينهم ما في الجنة من نعيم وما في النار من عذاب؟ إنهم إن كانوا يريدون ذلك فليعلموا أنه: "يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ (أمثالهم من الأمم الماضية) قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا، أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ وكان الجواب، كلا: "قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ" (الأعراف 53/51).

من هنا تنتقل بنا السورة مباشرة إلى عرض قصص هؤلاء الذي وقفوا من قبل مع رسلهم الموقف نفسه الذي وقفه كفار قريش مع رسولهم العربي محمد بن عبد الله.

وهكذا فبعد قصة آدم وإبليس تنتقل بنا سورة الأعراف إلى قصة نوح لتؤكد ما سبق. فمن السهل وضع اسم محمد مكان اسم نوح، وصرف كلمتي "أنجيناه" و"أغرقنا" من صيغة الماضي (المناسبة لنوح) إلى صيغة الحاضر والمستقبل (المناسبة لمحمد)، لتبقى الحقيقة المراد تقريرها هي هي.

أما الطريق الذي سلكته سورة الأعراف في الانتقال من آدم وإبليس إلى نوح فهو كما يلي: بعد الفراغ من قصة آدم/إبليس اتجهت السورة بالخطاب إلى بني آدم لتذكرهم بإرشاد الله آدم وحواء إلى "اللباس" الذي يستر عوراتهما، ولتنبههم إلى أن "لباس التقوى" خير، لأنه هو الذي يقيهم من أن يفتنهم الشيطان/الشهوة كما فتن أبويهما فأخرجهما من الجنة. ولما كان عرب "الجاهلية" قد اعتادوا أن يطوفوا حول الكعبة عراة "كما خلقهم الله" تضرعا إليه، وكأنهم يتبرؤون من فعلة آدم وحواء التي اضطرتهم إلى البحث عما يستر عوراتهما، فقد نبهتهم السورة إلى أنه لا ينبغي أن يتخذوا العري وسيلة للتضرع إلى الله، وأن عليهم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وأن يأكلوا ويشربوا دون إسراف.

ثم تخاطب السورة بني آدم منبهة إلى أن عليهم أن يتبعوا ما تأتي به إليهم رسلهم من الله، وتستطرد في وصف مصير المتقين ومصير الكافرين يوم القيامة مستعيدة حوار أهل الجنة وأهل النار، مذكرة قريش بأن الله قد بعث إليهم رسولا ومعه كتاب هو "هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ". ثم تذكرهم بأن الله خلق السماوات

والأرض ورتب نظام الكون وسخره لخدمة من في الأرض، ثم تذكرهم بأن الله كما يرسل الرياح حاملة سحبا ومطرا ينبت نباتا، بعضه طيب وبعضه خبيث، كذلك يرسل الرسل لتبليغ رسالاته إلى الناس فيكون منهم الطيبون الذين يستجيبون، والخبيثون الذين يكذبون ويعرضون، وبعد الممات يبعثون من قبورهم: الطيبون بسهولة، والخبيثون بمشقة، ثم يحاسبون...

ومن هنا تنتقل السورة إلى التذكير بقصص الرسل مع أقوامهم، مبتدئة بقصة نوح، بوصفه أول رسول جاء بعد آدم. يتعلق الأمر بنص قصير لا يحكي وقائع القصة كما سنتعرف عليها لاحقا، بل يقتصر على التركيز على حوار نوح مع قومه، وهو لا يختلف في شيء عن الحوار الذي ورد في آيات عديدة بين النبي محمد عليه السلام وقومه قريش[35]. وهذا ينسجم مع الغرض من القصص القرآني جملة، بوصفه وسيلة تذكير وبيان ودعوة لقريش لاستخلاص العبرة من تجارب "التاريخ"، تجارب الرسل السابقين مع أقوامهم، تماما مثلما تدعوهم إلى استخلاص العبرة من آثار وبقايا قرى الأمم السابقة، ومن انتظام الظواهر الكونية انتظاما يخدم الإنسان في نهاية المطاف. من هذا المنظور نكتشف وحدة السياق بين الآيات التي عرضت لقصة نوح والآيات السابقة لها والتي جاءت كمقدمة لها.

بعد عرض قصة آدم/إبليس وقصة نوح تعود بنا سورة الأعراف، إلى قصص "أهل القرى" مع أنبيائهم، لتفصل القول فيها، ثم لتعرج على قصص أنبياء آخرين قبل أن تنتقل إلى قصة موسى مع فرعون وقومه. يتعلق الأمر هذه المرة، ليس بقرية يعبد أهلها الأصنام، وإن كان نقد عبادة الأصنام سيستأنف في مرحلة من مراحل هذه القصة، بل يتعلق الأمر أساسا بطاغية نصب نفسه إلها يضطهد شعبه ويستعمل قسما منهم –هم بنو إسرائيل– في الأعمال الشاقة، وقد ذهب به الطغيان إلى أقصى مداه عندما قرر ذبح أطفالهم الذكور والإبقاء على الأمهات والبنات لتأمين الخدمة له ولملأه.. ومن أجل إنقاذ هذا الشعب بعث الله موسى إلى فرعون.

وعلى خلاف القصص السابقة حيث كان التعريف بالنبي يقتصر على نسبته إلى قومه كـ"أخ" لهم ("إلى هود أخاهم عاد"، "إلى مدين أخاهم شعيب" الخ) فإن حكاية حياة موسى تحتل حجما كبيرا في قصته مع فرعون –كما سنرى في سورة

35 – نشير في هذا الإطار إلى التشابه بين ما ورد أعلاه من تعجب قوم نوح من أن يكون الله قد أرسله إليهم وهو مجرد واحد منهم، وبين ما ورد قبل في مقدمة سورة "ص"، المتصلة مباشرة مع سورة الأعراف على صعيد ترتيب النزول، من تعجب قريش من أن يكون النبي محمد عليه السلام قد أرسله الله إليهم وهو واحد منهم: "وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ" (ص 4).

طه- هذا بينما يقتصر التعريف بفرعون موسى على إبراز طغيانه وادعائه الألوهية -دون ذكر اسمه ولا أي شيء يمكن أن يعرف به من بين الفراعنة الآخرين- مما يوحي بأنه يتخذ هنا رمزا للطغيان وبالتالي ليس المقصود فرعون بعينه، من بين الملوك الفراعنة، بل المقصود كل من هو في معناه. ويتأيد هذا بكون فرعون صاحب يوسف لم يطلق القرآن عليه اسم فرعون بل سماه "الملك" (انظر لاحقا سورة يوسف).

ومع أن قصة موسى قد عرضت في عشر سور من القرآن المكي[36]، مجال بحثنا، فإن العرض الوارد في سورة الأعراف، منطلقنا المرجعي، يشكل ما يمكن اعتباره الصيغة الرئيسية للقصة. وهذا لا يقلل من أهمية الصيغ التي وردت فيها القصة في باقي السور؛ ففضلا عن أن هذه الصيغ تورد عناصر جديدة تفصيلية فهي تطرح القصة في سياقات أخرى، كثير منها متشابه فعلا، على صعيد بداية السورة وخاتمتها، ولكنها تختلف قليلا أو كثيرا على صعيد أسلوب العرض كما على صعيد المضمون.

تبدأ سورة الأعراف في عرضها لقصة موسى بربطها بقصص أهل القرى المذكورة قبلها، الشيء الذي يعني أنها تندرج في نفس الإطار الذي حددته هذه السورة في بدايتها للقصص القرآني. أما المراحل التي ركزت عليها هذه السورة من قصة موسى، فقد عرضناها في فقرات داخل النص. وقد أبرزنا في عناوينها ردود فعل "الشعب"، قوم موسى وقوم فرعون.

بعد ذلك تعود السورة إلى قريش، في خاتمة مطولة، تتميز بهجوم لاذع على الأصنام، فيه تسفيه لعقول الذين يعبدونها ثم تتحداهم أن يستعينوا بها وينفذوا ما يتحدثون به من ضرورة التخلص من محمد، الرسول الذي هد كيانهم وأقض مضاجعهم: "قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي، فَلَا تُنظِرُونِي[195] (لا تمهلوني)، إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (الأعراف 195-196).

36- ذكر اسم موسى في القرآن كله 131 مرة. أما قصته في القرآن المكي فقد عرضت في عشر سور: حكاية، أو مجرد إشارة. أما هذه القصة في القرآن المدني فسنعرض لها لاحقا.